# الترجمة والتبعية الثقافية

حنا عبود

## الشامان والمترجم: الذاتية والتبعيّة

اعتدنا أن نعتبر الترجمة عمليةَ نقلٍ من لغة إلى أخرى، مع أنّ الترجمة قد تكون في اللغة ذاتها. فعندما نقول: «لم يترجم الشاعرُ عواطفَه بدقة»، فإننا لا نكون أمام لغةٍ أخرى بالمعنى المتعارف عليه، بل أمام لغة خاصة هي تلك الإحساسات التي يسعى الشاعرُ إلى تجسيدها بكلمات وتراكيب ماديةٍ منطوقةٍ أو مكتوبة، وهي في بعض الأحيان أصعبُ وأشقُّ في الترجمة من اللغة الأجنبية: فقد تفرُّ بعضُ الإحساسات عن وضعها الدقيق، فيكون التعبيرُ قريباً منها من غير أن تكون مرسومةً فيه تماماً.

في القديم كان الشامان [أو الكاهن البدائي] يقوم بحركاتٍ تعبيرية لشفاء المرضى أو قتلِ الخصم أو العثورِ على ضائع أو استنزالِ المطر...وقد يختلف المشاهدون في ترجمة هذه الحركات والإشارات، ولكنّ المعنى العمومي من حركاته وإشاراته لا بد أن يكون واحداً لدى الجميع وإلا فإنّ العملية لا تؤدي وظيفتها.

الشاعر أو الشامان يشبه اللغة الأجنبية لأنها هي الأخرى تقوم بترجمة ما هو واضح وما هو ضبابيّ. فالتعبير عن الأفعال الخارجية لغة واضحة لا لبس فيها، ولكنّ المشكلة قائمة في أنّ الشامان الأجنبي يطرح أمامنا لغةً هي في حد ذاتها تعبيرٌ عن أشياء مجردة أو أحاسيس غير مكتملة الدقة، بل إنه أيضاً يطرح بعض المفردات التي لا مقابل لها إطلاقاً في لغة الترجمة...

ما كان يجري مع الشامان يجري معنا الآن. فالشامان عندما يعبِّر عن مشاعره الذاتية يشعر أنه حرّ وبعيد عن التبعية، ولكنه عندما يريد أن يوصل بعضَ المعاني إلى جمهوره يُضطرّ إلى أن يكون تابعاً لحركات معينة، وإلاّ فإنّ أحداً لن يفهمه. ونحن في هذه الأيام عندما نترجم شيئاً نرى فيه ذاتنا فإننا لا نشعر بالتبعية مثلما نشعر بها عندما نترجم شيئاً جديداً كلّ الجدة علينا. التجارب المشتركة لا تُشعرنا بالتبعية، وأما التجارب الجديدة فإنّ التفاعل معها مختلف كلّ الاختلاف: فهي تُدخل الدهشة فينا، وقد ننساق معها لجدّتها لا لصحتها، وكثيراً ما يكون المدهِشُ أوقَعَ في النفس من المألوف المعروف؛ وهنا تكمن مشكلة التبعية.

هل نستطيع وضعَ قانونٍ نسير عليه في نظرتنا إلى الترجمة حتى لا يتشعب بنا البحثُ ويناى عن هدفه الأساسيّ؟ الحقّ أنّ القانونَ الذي نراه مناسباً بعضَ المناسبة هو أنّ ترجمة التجارب المشتركة تُشعرنا بذاتيتنا ولا تشعرنا بالتبعية. وأما التجارب غير المشتركة فهي التي تحرّك بركتنا المألوفة وتجعلنا نشعر بالتبعية بحسب تفاعلنا معها وبحسب فقر ثقافتنا أو اكتنازها.

سنعتمد على هذه النظرة على الرغم من أننا قد نعثر على بعض الاختراقات لها؛ إذ لا نَعْدم أن نجد مترجماً يميل بطبيعته إلى الإدهاش فيجعل لك المألوفَ جديداً والعاديَّ خارقاً. كما أنّ النفس الإنسانية لا يمكن ضبطُها لأنها قد تبالغ أو تكذب حتى في الوقائع: فمعركة قادش حسب الآثار السورية كانت هزيمةً للجيش المصري، ولكنّها بحسب الآثار المصرية كانت انتصاراً للفرعون على خصومه؛ وبذلك نكون أمام نصيْن يتحدثان عن واقعةٍ واحدة (لا عن شيء معنويّ) ومع ذلك يتعارضان كل التعارض. وكُتُبُ التاريخ ملأى بمثل هذيْن النصين، وذلك لأنّ تاريخ أمةٍ يختلف عن التاريخ الذي تكتبه جارتُها عنها. وإذا كنا نفشل أحياناً في ترجمة الوقائع، فماذا نقول عن الأفكار والمشاعر المعنوية وسواها مما لا نجد تجسيداً مادياً لها؟

هذا القانون الذي نضعه نعرف مسبّقاً أنه غيرُ دقيقٍ كلّ الدقة، ومع ذلك يمكن اعتمادُهُ نظرةً عامةً نلقيها على مسألة الترجمة. وحتى لا نضيعَ في شعاب البحث فسوف نقتصر على تجربتين في الترجمة: التجربة العباسية والترجمة الحديثة. ولكنْ قبل ذلك أودّ أن أشير إلى أن كلمة «تبعية» ليست بالكلمة الدقيقة التي تكون موحياتُها مطابقةً لحقيقتها. فهي لا تعني شيئاً واحداً في كل الميادين. كما أنها في الميدان الثقافيّ لا تعني امحاءً للشخصية، بل قد تكون على النقيض من ذلك. وهنا نحن مضطرون إلى وضع قانونٍ ناظمٍ لكلمة «تبعية»: وهو

أنّ هذه التبعية إنْ كانت تسدّ نقصاً فينا فإنها مفيدةٌ كلّ الفائدة وغنيةٌ كلّ الغنى لشخصيتنا المعرفية؛ ولكنها إنْ كانت من باب التراكمات المرهِقة التي لا تلبّي حاجةً بل تسعى إلى خلق حاجة مفتعلة فإنها ولا شك تبعية مُضرّة. فالشيء المدهش يخلق نوعاً من التبعية ولكنْ ليس من الضرورة أن يكون هذا المدهشُ الجديدُ إضافةً بل قد يكون إرهاقاً كما سوف نرى.

## التجربة العباسية

**أ ـ في الطب والفلك:** كان استيلاءُ العباسيين على السلطة انقلاباً حقيقياً شمل كلّ شيء تقريباً. ومع ظهور العباسيين ظهرتِ الترجمةُ الحقيقية. وقد هرع الخلفاء العباسيون الأوائل إلى ترجمة فرعيْن من فروع المعرفة، هما الطبّ والفلك. ويقال إنّ كتاب **سيد هنتا** الهنديّ كان أول كتابٍ في علم الفلك يترجَم من الهندية، وأما الطب فتأخر قليلاً لأنّ المهم كان الأطباء الذين يُشْرفون على صحة الخلفاء. وقد توالت الترجماتُ الفلكية بعد هذا الكتاب الرائد بكثرة مفرطة تكاد تربو على الترجمات في الفروع الأخرى وفرع الطب أيضاً. وقد أحاط الخلفاءُ أنفسَهم بنوعيْن من الرجال: الفلكيين والأطباء أياً كان دينهم أو ملّتهم أو جنسيتهم؛ وهذا ما كان ليحصل في الدولة الأموية. وإكرام المنصور الشديد لطبيبه ابن بختيشوع أشهر من أن نذكّر به، حتى إنه في الحج كان يصلّي له. وقد اندفع الخلفاء الأوائل إلى الطب والفلك لسببٍ في نفوسهم، وهو أنّ حياة الدول والأفراد مرتبطة بالنجوم التي صار العباسيون ينظرون إليها بعد الترجمة على أنها كائناتٌ ذاتُ أرواحٍ وأنفسٍ ولها التأثير الأول في البشر؛ ولهذا أكثروا من الفلكيين ليعرفوا كيف يتصرفون ومتى يحاربون، وأكثروا من الأطباء ليمنعوا عن أبدانهم التأثيراتِ الضارةَ للنجوم. وبهاتين الوسيلتين ـ كما ظنُّوا ـ يمكن أن تستمر الدولةُ العباسية إلى ما شاء الله...[1].

لقد عُرف عن العرب أنهم أصحابُ فطرةٍ صحراوية، وربما كان الإسلام هو الدين الأنسب لهم لأنه دينُ الفطرة البعيدُ عن الحذلقات والتساؤلات الكبرى. وقد تمسكتِ الدولةُ الأموية بهذه الفطرة ولم تجذبها العلومُ الأجنبية كثيراً. ولكنّ العباسيين خرجوا عن هذه الفطرة وصاروا في حالةِ تبعيةٍ كاملةٍ للفكر التنجيميّ، وفي حالة استسلامٍ لأطبّائهم حرصاً على دولتهم التي كانوا يتخيلون أنها جزء منهم وأنّ بقاءَها مرتهن ببقائهم.

هنا نَجَمَ تناقضٌ صارخٌ بين دين الفطرة وهذا التنجيم الذي أدهشَ الناس أيامئذ. فقد كانت تُروى الحكاياتُ المذهلة عمّا تفعله النجومُ بالأرض وببني البشر، وكيف تقلب دُوَلَهم، وتقضي على جيوشهم. واندحر علمُ الأنواء الصحراويّ أمام علم النجوم، وصار أقرب إلى السخرية. وكان على الشخصية العباسية أن تعيش حالةً من التناقض: فمن جهة أذعنتْ لدين الفطرة، ومن جهة ثانية راحت ترى ضرورة الاطلاع على علم التنجيم صيانةً للدولة وكي لا يحلّ بهم ما حلّ بالأمويين الذين سقطت دولتهم.

هذا التناقض هو أول تناقض أصاب الشخصية العباسية طيلة عصورها، إذ لم يتوقف علمُ التنجيم، بل لم يتراجعْ عن فاعليته في النفوس. ولا شك أنّ السيطرة كانت لعلم التنجيم الهنديّ، ولكنّ كتب بطليموس الفلكية تُرجمتْ هي أيضاً إلى العربية فشدّتْ من أزر التنجيم الهنديّ وزادت من تأثيره. ومن المعروف أنّ الإغريق كانوا على المذهب الإحيائيّ فيما يتعلق بالنجوم؛ فكل نجم هو ربّ من الأرباب الأولمبية مثل بلوتو ونبتون ومارس وڤينوس ذوي القدرة الساحقة في الميثولوجيا الاغريقية.

وإذا كانت الترجماتُ في علم التنجيم قد تضاءلتْ في العصور العباسية المتأخرة فإنّ هذا لا يعني توقّف التنجيم، بل صار المنجّمون يُعَدُّون بالألوف؛ فما إن يسمع خليفةٌ من أمثال المعتصم بمنجّم يقرأ البخت وأحكامَ النجوم حتى يأتي به من أقاصي الأرض، وأحياناً كان الخليفة يأتي بالمنجّمين في كل صباح ليعرف ماذا تقول النجوم في يومه الجديد: أهو يوم سعد أو يوم نحس، وكيف عليه أن يتصرف لينجو من التأثير السيّئ للنجوم؟ وفي أواخر أيام العباسيين كثر المنجّمون لا في بيوت الخلفاء فقط بل في بيوت الأمراء والأثرياء أيضاً، وكان التجّار يلجأون إليهم قبل الأسفار في تجارة جديدة. وامتلأت شوارعُ المدن وأزقةُ القرى بالمنجّمين الجوّالين الذين عانوا شظف العيش بعد أن تدهورت الأوضاع؛ فقد كان عدد المنجّمين القادمين إلى بغداد أكثرَ من استيعاب المدينة لهم.

**ب ـ في الفلسفة:** فإذا انتقلنا من الترجمة الفلكية إلى الترجمة الفلسفية لرأيناها أغزرَ بكثير، ولكنها لم تكن أشدّ منها في التبعية والتأثير. وإذا كان الإغريق قد شاركوا الهنود في علم الفلك فإنهم انفردوا في الساحة الفلسفية لا منازع لهم ولا شريك.

وقد ظهر الاتجاه نحو ترجمة الفكر اليوناني منذ أيام البرامكة. وليس ذلك بمستغرب: فقد وصل الفتحُ الثقافيّ للإسكندر إلى بلادهم، وتراجُعُ الإغريق من فارس لا يعني تراجُعَ فكرهم الذي كان مؤثّراً حقيقياً يحظى بالاهتمام منذ أنو شروان. ولكنّ الترجمة الفلسفية لم تصل ذروة تأثيرها إلا في زمن المأمون الذي كان شغوفاً بفكر اليونان؛ ولكيْ يشجّع

---

١ ـ يراجعَ في ذلك: عبده الشمالي: **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥٦. وماجد فخري: **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٩.

شعبه على ذلك روى أنه أبصر حلماً جاء فيه أرسطو ونصحه بعد حوار طويل بأن يترجم كتبه لأنها تدعو إلى التوحيد الذي أوصاه أن يتمسك به. ومن هنا نظر العباسيون إلى التراث الفلسفيّ اليونانيّ على أنه تراثٌ توحيديّ، فنقلوا معظم هذا التراث: من طاليس وفيثاغورس حتى أرسطو وتاسوعيات أفلوطين. وتشكلتْ مدارسُ كاملةٌ للترجمة كمدرسة حنيْن بن إسحق جعلتْ دأبَها الترجمةَ عن اليونانية وحسب، فكان أحدُ أفرادها يترجم الكتابَ والآخرُ يعيد الترجمةَ وثالثٌ يدققه ورابعٌ يرققه*. ودخل المترجمون في منافسة شديدة. وقد كان لمدرسة حرّان الوثنية إسهامٌ كبيرٌ في تقديم الترجمات الموثوقة[1]. وإنّ نظرة سريعة إلى **فهرست** ابن النديم تكفي لتكوين فكرة عن حركة الترجمة الناشطة.

هذا النوع من الترجمة هو المدهش الثاني الذي واجهه الفكرُ أيام العباسيين بعد علم التنجيم. فقد تهافت الناسُ المتعلمون والمتدينون على قراءة هذا العلم المدهش بشغفٍ لا مثيل له. وعلى الفور ظهرتْ تبعيةُ الفكر للتراث اليونانيّ، فقد ظهرتْ مصطلحاتٌ من أمثال «الجوهر والعرض والهيولى والفيض والصانع أو الديمرجوس» كما يسميه اليونان. وكما حدث في علم التنجيم حدث في الفلسفة: فثمة شرخ كبير بين دين الفطرة الصحراويّ البسيط الذي يكتفي بترشيد الخلق بأهون السبل وأوضحها، وبين هذا الصرح الفلسفيّ الجبّار. وكان لا بد من رتق هذا الشرخ والتوفيق بين دين الفطرة والفلسفة الجديدة المدهشة...

**ج ـ في الأدب:** عزف المسلمون عن ترجمة الأدب بمقدار ما انجرفوا وراء الفلسفة. فباستثناء أثرٍ أدبيٍّ ظهر في بداية العصر العباسي وهو **كليلة ودمنة**، وآخَرَ ظَهَرَ في العهود المتأخرة من هذا العصر وهو **ألف ليلة وليلة**، فإننا لا نعثر على ترجمة أدبية مرموقة. يقال إنّ الفارابي ترجم **كتاب الشعر** لأرسطو ـ وأظن أنّ الأمر مشكوك فيه لعدم معرفته اليونانية؛ فقد كان يعرف التركية لغةَ قومه، والعربيةَ لغةَ دينه، والفارسيةَ لغةَ بيئته ـ ولكنْ أيّاً يكن الأمر فإن هذه الترجمة لو صحّتْ لم تؤثّر قليلاً أو كثيراً في الفكر النقديّ الأدبيّ، بل إنّ كل المترجمات الأدبية لم تفعل شيئاً[2]. وقد نجد بعض الملامح اليونانية في الأدب العربي، كما ذهب إحسان عباس، ولكنّ من العبث البحثَ عن تأثير حقيقيّ للأدب اليوناني في كل العصور العباسية. فلا خوف إذا استنتجنا أنه لم تكن ثمة تبعيةٌ أدبيّةٌ من أيّ نوعٍ من أنواع التبعية. ولو أنّ الترجمة

**التبعية التي تسدّ نقصاً فينا مفيدة، ولكنها تكون مضرّة إذا سعت إلى خلق حاجة مفتعلة**

الأدبية تمت بغزارة الترجمة التنجيمية أو الفلسفية لكنّا منذ ذلك العصر اطّلعنا على فنونٍ لم نعرفها إلا في العصر الحديث، من أمثال المسرحية والقصة. وأما الطفرة التجديدية في الشعر العباسي فلم تكن بسبب الترجمة والاطّلاع على الآداب الأخرى، بل كانت بسبب تغير أسلوب الحياة فقط، وبسبب اختلاط الشعوب وتمازج ثقافاتها. وقد ظلّ أدبُنا في مأمن من أيّ تبعيةٍ أدبيةٍ، فلم تقم محاولاتٌ تجاوز ولا محاولاتُ ارتدادٍ ولا محاولاتُ توفيقٍ كما حدث في الفلسفة، واستمر الأدبُ على حاله حتى مطلع العصر الحديث.

إنّ ترجمة **كليلة ودمنة** أحدثتْ ولا شك تأثيراً في الجو الأدبيّ، ولكنْ في الشعر أكثر منه في النثر. فقد راح الشعراء يَنْظمون بعض قصصها، ويقال إنّ ابان بن عبد الحميد اللاحقيّ قد نظم **كليلة ودمنة** كاملةً. ولكنّ هذه الترجمة لم تخلق تياراً أدبياً، ولم يكن لها تأثير لا في شكل الأدب ولا مضمونه، بل إنّ فناً غير مترجم هو فنّ المقامات كان له من التأثير أضعافُ ما كان لـ **كليلة ودمنة**، إذ تعدّى تأثيرُهُ المشرقَ ووصل إلى ديار المغرب والأندلس، وبشيء من التجاوز يمكن القول إنّ العصر العباسيّ خلق مدرسة مقامية واضحة المعالم. أما فيما عدا ذلك فقد استمرّ أدبُنا يتطور ويتعثر ويكبو وينهض من دون أن يكون للترجمة تأثير فيه[3].

## التجربة الحديثة

**أ ـ أوروبا والعرب:** لقد سبقنا الأوروبيون إلى الترجمة بزمن طويل، فقد عاشوا على التراث العربيّ فترةَ العصر الوسيط، إذ ترجموا ما ترجمه العربُ من تراث اليونان وعلى الأخص كتب ابن رشد. أما الأدب فقد كانت الترجمة عنه قليلة ومحدودة. وهذه الترجمة جعلت أوروبا، وعلى الأخص جنوبها، في حالة تبعية للفكر العربي الإسلامي. ولا أدلّ على ذلك من أنّ روجر بيكون، عندما طالب بالتجربة العلمية والتطبيق العمليّ بعيداً عن الغيبيات، اتُّهم بأنه مسلم مع أنه كان من الرهبان المؤمنين! وكان بترارك يؤنّب مواطنيه على اعتقادهم بأنهم لا يستطيعون اللحاق بالعرب. وبالفعل فإنّ أوروبا الغربية كانت تفتقر إلى التراث اليونانيّ الفلسفيّ، ولولا العربُ لكان للأوروبيين وضعٌ آخر، إلا أنّ المترجمات عن العربية شحنتْهم بطاقة جديدة ما زال مفكروهم حتى اليوم يذكرون فضلها وفضلَ

---

* ـ يراجع بحث جورج طرابيشي في هذا العدد. (الآداب)

١ ـ مرجع سابق.

٢ ـ جرجي زيدان: **تاريخ آداب اللغة العربية**، الجزء الثاني، دار الهلال، د. ت، ص ٢٥.

٣ ـ مرجع سابق ص ١٥٢، ويراجع الجزء الثالث من «التمدن الإسلامي» للمؤلف نفسه، دار الهلال، د.ت، ص ١٥٥ ـ ١٦٩.

اليهود الذين قاموا بمهمة الترجمة من العربيةِ إلى اللغات الأوروبية، أسوةً بالنساطرة واليعاقبة والوثنيين الذين قاموا بنقل التراث اليونانيّ إلى العربية.

يبدو، إذن، أننا تبادلنا الأدوار: فبعد أن توقفتْ حركةُ الترجمة عندنا نهائياً تقريباً بدأتْ عند الأوروبيين. وصار العربُ، في وَهْمِ الأوروبيين، قمةً يصعب الوصولُ إليها. وانتشرت المدارسُ الفكرية التابعة للفلسفة العربية من أمثال الرشدية والابنسينية والرازية، بالإضافة إلى المدارس الطبية والعلمية. وما تزال مصطلحاتٌ عربية تعجّ في المعجمات الأوروبية فتشهد على ذلك الدور الذي لعبته الترجمةُ من العربية... عدا الأرقام العربية والجبر واللوغاريتم*.

لكنّ سقوط القسطنطينيّة في منتصف القرن الخامس عشر غيّر من تبعية الفكر الغربيّ. فقد فرّ المسيحيون الشرقيون حاملين معهم التراثَ اليونانيَّ بلغته الأصلية وانتشر في المدن الإيطالية. وفي أقل من نصف قرن ظهرت النزعةُ الإغريقية وسادت أوروبا الغربيةَ برمّتها بنسبٍ مختلفة، فناً وفلسفة وأدباً، معلنةً ما يسمّى بالنهضة الأوروبية. لكنّ هذه التبعية تمّت من دون ترجمة غزيرة لأنّ اللغة اليونانية كانت ما تزال حيّةً ومنتشرةً، إلى جانب اللاتينية، في الأوساط المثقفة. ولم تتم ترجمةُ التراث اليونانيّ إلا عندما سادت اللغاتُ المحلية وصارت لغاتٍ رسمية وأدبية، وبذلك عادت الآلهةُ اليونانية إلى الظهور لتحمل الأفكار التي في رأس الكاتب، والتي كانت ممنوعةً زمنَ سيادة الكنيسة الغربية. فإراسموس ولوثر ورابليه وبقية الأعلام اندفعوا نحو التراث الإغريقيّ اندفاعاً جارفاً، وظلت التبعيةُ لليونان حتى القرن الثامن عشر. وما الكلاسية الجديدة إلا نوعٌ من التبعية، على الرغم من التعديلات التي كانت تقتضيها الظروف. وبذلك انتهى عهدُ تبعية الفكر الأوروبيّ للفكر العربيّ، وولّى عهدُ الأدب الرتيب الذي كان منحصراً بالعقيدة الوحدانية للكنيسة الغربية، وظهر الفكرُ اليونانيُّ بتعدديته الرحيبة.

لكنّ هذه التبعية للإغريق لم تستمر طويلاً. فقد أخضع الأوروبيون أرسطو وأفلاطون وإبيقور وبقيةَ الفلاسفة لنقدٍ معمّقٍ لم يسبقْ له مثيل، بل إنّ بعضهم حمّل أرسطو تبعةَ تأخير التفكير العلميّ بسبب أخطائِهِ مدة عشرة قرون. وبظهور الحركة الرومانسية وتغييرها لأسس المسرح والرواية والشعر والملحمة، شَعَرَ الأوروبيون أنهم اندادٌ للإغريق، وصار لهم تطورهم الخاص، وانفتحتْ مجتمعاتهم بعضُها على بعض، وصار بروز عَلَمٍ في ألمانيا مثلاً يَكْسب من الصيت والانتشار في بقية الأقطار أكثر مما يَكْسبه في بلده أحياناً، دون أيّ غضاضةٍ أو شعور بالتبعية. وتحولت الترجمةُ من الشعور بالتبعية نتيجةً للتقصير، إلى شعور بالغنى والرسوخ وتوسيع الملكية الفكرية. وقد مرتْ فترةٌ كان أنصار هايدغر في فرنسا يفوقون أندادهم في ألمانيا على الرغم مما يحمله كلُّ شعبٍ للآخر من حساسية. وباختصار نقول إنّ أوروبا قد سبقتنا بأكثر من قرنين، وكوّنتْ شخصيتها، وضمنتْ حرية فكرها، ولم تعد تشعر بأيّ تبعيةٍ من الناحية التي نتحدث عنها لا في الاقتصاد والسياسة وحدهما. والملاحظ أنّ توطيد الحرية الفكرية ألغى الوصاية السياسية، وصار المثقف لا يقل عن السياسيّ تأثيراً في المجتمع.

**ب ـ نحن والترجمة والطوطم:** تجربتنا الحديثة في الترجمة تختلف عن تجربة أوروبا. فنحن لم نَرْجع إلى الإغريق لنتعلم منهم مدى ارتباط الفكر بالحرية، ولم نستطع تحقيق أدنى درجة من الحرية الفكرية التي كانت موفورة في أوروبا منذ القرن الثامن عشر. لقد هاجم الأوروبيون كلّ ما يقف في وجه حريتهم، بما في ذلك الدين والكنيسة، وكانت كلُّ ترجمة تساعد في هذا الاتجاه. أما نحن فقد سِرْنا بالعكس، أيْ إذا وجدنا في الترجمة ما يُغضب الطوطمَ السلطويَّ ومحرّماته تحاملْنا عليه وروّضناه جيداً أو غيّرنا من بعض معالمه حتى لا يغضب والينا التركيّ والوطنيّ، كما فعلنا حديثاً في ترجمة **عشيق الليدي تشاترلي**. دائماً نتحايل، ومع ذلك نطالب بحريتنا؛ فكأننا نريدها بلا ثمن! ولو عُدنا إلى ما تُرجم في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن العشرين لَلَمَسنا ذلك بوضوح. ولا بأس من أن نقف قليلاً عند هذه النقطة التي نراها هامة، لأنها تُفْصح عن طبيعة نظامنا الشرقيّ من جهة، وعن تمزُّقنا الاجتماعيّ بين القيم القديمة والقيم الجديدة من جهة ثانية، وعن خوفنا الفرديّ المحفور في أعماق نفوسنا من جهة ثالثة.

في تجربتنا الحديثة نريد أن نصيد عصفورَيْن بحجر واحد: فنحن نرغب في أفكار القرن الثامن عشر، قرنِ الثورة الفرنسية، ولكننا نريد من باب آخر الاحتفاظَ بهيكليتنا الاجتماعية. وهذا الموقف هو الذي تحكّم في اختيارنا مادةَ الترجمة. فلو دقّقنا في قوائم الترجمة ـ وليكنْ في القصة والرواية ـ لوجدناها تشتمل بالدرجة الأولى على الفروسية وأخلاقِ الفضيلة؛ وفي هذا بذلنا معظمَ جهودنا. فلقد تَرْجَمنا معظمَ روايات الكسندر دوما الأب، ومعظمَ روايات ميشيل زيفاكو الذي لم أجد له اسماً في المعجمات والموسوعات الأدبية التي بين أيدينا؛ وهي روايات لا تخرج عن الميزتين السابقتين، من أمثال: **الفرسان الثلاثة، والكونت دو مونت كريستو، والكونت مونغوميري، وعقد الملكة،**

* ـ يُراجَع بحثُ محمد عبّاسة في هذا العدد. (الآداب)

والعاشقة المتنكرة، وشقاء الغرام، وضحية العفاف... الخ لألكسندر دوما الأب وأمثال: باردليان، وابن باردليان، والساحر العظيم، والانتقام الرهيب، ودار العجائب، لميشيل زيفاكو[1].

**كنّا كلّما وجدنا في الترجمة ما يُغضب الطوطمَ السلطويَّ تحاملنا عليه وروّضناه أو غيّرنا بعضَ ملامحه**

هذه هي بدايةُ ترجمتنا: إنها الترجمة التي تحمي مجتمعنا، مجتمعَ عنترة وعبلة، مجتمعَ الفارس والعاشقة المضحِّية. وقد سردتُ عناوين تلك الروايات لأنها الأوسعُ انتشاراً على الإطلاق: فبعضها لم يخرج من سوق الكتب حتى هذه الأيام؛ بل إنّ روايات زيفاكو تُبْسَط وتباع على الأرصفة [إلى اليوم].

إنّ في أعماقنا حرصاً على مجتمعنا الشرقيّ الذي لا نريد أن نغادره. نحن نكره المغامرة في رسم مستقبل جديد، ونخاف دوماً من المستقبل. وأودّ أن أشير إلى روايةٍ أو مسرحيةٍ أحدثتْ أعظمَ ضَجّةٍ، وأبعدَ تأثيرٍ في أدبنا منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى الآن. إنها مسرحية **غادة الكاميليا** لألكسندر دوما الابن الذي، بعد نجاحها، كتبها روايةً. هذه المسرحية أو الرواية لم تترجَم لتُطبع بل لتمثَّل على كل مسارح العالم العربيّ، وليقلِّدها روّادُنا الأوائل. الآن لا نجد مسرحيةً مطبوعةً بهذا الاسم، ومع ذلك ظهرتْ على كل المسارح العربية بهذا الشكل أو ذاك، وكتبها الروائيون بعد أن حوّلوا اسمها إلى اسم عربيّ شرقيّ. وعندما ظهرتِ السينما استغلتْها إلى أبعد حدٍّ، وبأشكال متنوعة.

من هنا نجرؤ على القول إنه لا يمكن أن تظهر عندنا في أدبنا الروائيّ أو المسرحيّ شخصيةٌ مثل دون كيشوت أو المستر پيكوك. فدون كيشوت لا معنى له عندنا لأنه فارسٌ فاشلٌ لا يستطيع إرجاعَ عهد الفروسية؛ والمستر پيكوك لم يستطع أن يعيد العالم الأخلاقيّ المتلاشي. كما لا يمكن أن يظهر عندنا غارغانتويا أو پانتاغرويال الذي يهدم الأديرةَ القديمةَ ويحوّلها إلى حدائق متعة للشبان والشابات. باردليان هو الذي يناسبنا تماماً، لأنه مدافع عنيد عن قيم البلاط!

وعلى العاشقة حين تخطئ أن تموت ـ بحسب مفهومنا الشرقي ـ... تماماً مثل غادة الكاميليا، إذ بعد قرن من الزمن يكتب محمد عبد الحليم عبدالله روايته الشهيرة **شجرة اللبلاب** وتنتهي البطلة بالموت لأنها ارتكبتْ غلطةً لا تُغتفر (حسب قيمنا). حقاً، ليس ثمة مكانٌ في أدبنا لـ «مول فلاندز»!

يجب ألا نعجب لهذا التأثير الكبير لغادة الكاميليا: فهي تناسب طبيعتنا، لأنّ الغانية مهما أظهرتْ من التضحية والخصال الإنسانية الفائقة يجب أن تنتهي إلى الموت. في ذلك الزمن لم نكن نتقبّل شخصيةَ المجدلية. فمهما كانت الخطيئة خارجة عن الإرادة فلا بد أن تعاقَب. ولم نكن وحدنا في هذا المفهوم، بل نجد هذه الظاهرة لدى كتّاب كبار، كما في «نانا» لاميل زولا و«آنا كارنينا» لتولستوي. وأما «سونيا» لدستويفسكي فلم تكن مقبولة. إنّ حرصنا على الأسلوب الشرقيّ في القيم والأخلاق جعلنا نَحُول دون دخول المجدلية في أدبنا. إنّ غادة الكاميليا التي لم تُطبع كان لها كلُّ هذا التأثير، بينما قصة مانون ليسكو التي ترجمها ونشرها ميخائيل جورج عورا بعد أن عرّبها أو شرّقها في جريدة **الأهرام** منذ عام ١٨٨٦ لم يكن لها أيُّ وقعٍ لأنها ماجنةٌ بلا توبة وخاطئةٌ بلا مغفرة.

## سيكولوجية الترجمة: بين التجربتين

**أ ـ الأصالة والافتعال:** هنا ندخل في سيكولوجية الترجمة، التي ستظهر واضحةً إنْ قارنّا بين تجربتنا القديمة في الترجمة وتجربتنا الحديثة. فقديماً كنّا في حالةٍ تبعيةٍ لأننا كنا في حاجة إليها، ولكننا لم نكن نشعر أنّنا ممزقون. أما تجربتنا الحديثة فقد دخلناها وفي نفوسنا شعورٌ بالتمزق، بل إننا اجتماعياً مشتتون، إلى جانب تشتتنا الفكري: فنحن نريد أن نصالح بين الغرب الحديث والشرق القديم، وبين العلم والدين، وبين المناهج الحديثة والخطابة القديمة. وقد كنّا جدَّ ماهرين في **تعريب** الأثر لا في **ترجمته**، إذ سرعان ما نحوّل الشخصيات إلى شخصيات عربية ونعدِّل أو نغيِّر من الأحداث بما يرضي ذوقَ الجمهور. فبخيل موليير «هرباغون» يتحول إلى هرباغونات وفقَ ظروفِ كلِّ قُطْر. تجربتنا القديمة ذات شخصية ـ إنْ صح التعبير ـ، وأما تجربتنا الحديثة فلا نعثر فيها على شخصية واضحة، بل هي موزاييكٌ مجموعٌ من دون تنسيق!

ومن جهة أخرى فإننا لا نشك في أنّ المصادر المتنوعة، من فرنسية وإنكليزية وألمانية وإيطالية، قد ساعدتْ على هذا التشتت أو التمزق. فنحن لم نغرفْ من مصدر كبير متماسك كما غرفنا قديماً من اليونان، بل أخذنا نترجم عن أوروبا بعد أن ظهرتِ الدولُ القوميةُ واللغاتُ والتمرداتُ القومية، وكانت كلها في حالة غليان، الأمر الذي جعلنا نحْتار فيما نختار...

وكي يتّضح كلامُنا يكفي أن نقارن بين التجربتين. فالتجربة العباسية ذاتُ شخصيةٍ متميزة تعرف ما تريد. لقد كان العبّاسيون يخافون أن تزول دولتُهم كما زالت دولةُ بني أمية، فهرعوا إلى الفلك والأبراج لحماية الدولة، وإلى الطب لحماية رجالها من المرض والموت؛ ولهذا كان إقبالهم على الترجمة واضح الأسباب. وأما دوافع تجربتنا الحديثة فمشتتةٌ فيها الكثيرُ من التجاذبات الضدية. ومع ذلك لا نستطيع أن نغفل عن الدوْر الذي لعبته المطبعةُ، والحالة التي خلقتْها المجلاتُ والصحفُ. إنّ اللبنانيين وحدهم أنشأوا عشرات المجلات والصحف، بمعنى أنهم خلقوا ـ مع غيرهم طبعاً ممن

---

١ ـ محمد يوسف نجم: **القصة في الأدب العربي الحديث (١٨٧٠ ـ ١٩١٤)**، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٠ ـ ٣٥.

أسسوا المطابع وأصدروا المجلات والصحف ـ حاجةً مفتعلةً برانيةً لا حاجة أصيلةً جوانية، فصار المترجمُ يعمل تلبيةً لحاجة تحرير الصحف والمجلات إذ لا يمكن للعلوم وحدها أن تحرّر المجلات والصحف اليوميّة.

ولكنْ على الرغم من تغيّر الشخصية بين التجربة العباسية والتجربة الحديثة، أو تغير الظروف بتعبير آخر، فإننا نلاحظ أنّ هناك شيئاً مشتركاً بين الشخصيتين، وهو ذلك الإيمان بأنّ أدبنا كامل لا يحتاج إلى رافدٍ أجنبيّ. وعندما نقول «أدبنا» فإنّ الشعر هو المقصود قبل غيره، بمعنى إيمان التجربتين بأنّ تطور الشعر يتم من داخله ولا يحتاج إلى مؤثّرٍ خارجيّ. وهذا ما يفسِّر لنا أنّ التجربة العباسية لم تلتفتْ إلى الأدب اليونانيّ، وأنّ التجربة الحديثة لم تمسّ الشعرَ وظل حتى منتصف القرن العشرين في مأمن من الرياح الأجنبية. بل إنّ القصة نفسها كانت مرفوضة من قبل بعض المجلات والصحف: ففي العدد ١٨٣ من **الرسالة** لعام ١٩٣٧ يكتب رئيسُها أحمد حسن الزيات أنّ المجلة «لا تتخذ لهوَ الحديث، ولا تصطنع خوادعَ الحسّ، ولا تتملق شهوات الأنفس. وأصدقاؤها ـ والحمد لله والشكر لهم ـ لبسوها على هذه الخشونة فلا يريدون أن تخطر في شيء، ولا أن تطرى في كلام، ولا أن تميل إلى هوى العامية، حتى أبوا كلَّ الإباء أن يتسع فيها مجالُ القصص»[1].

هكذا إذن: كانت القصة وكذلك المسرحية معرّةً وإثماً مثل لحم الخنزير. ومن هنا نعرف لماذا كان المترجمون يعرِّبون تعريباً، ويغيِّرون الأسماء، ويعدّلون الأحداث، ويبدّلون الشخصيات. ولولا حاجة الصحف والمجلات إلى المترجمين لاتخذت الأمورُ منحى آخر. ولمّا كانت ترجمةُ القصة والمسرحية أسهل من ترجمة الشعر، فقد تخلّف الشِّعرُ عن التفاعل مع الآداب المترجمة حتى منتصف القرن العشرين.

لنمعنْ في شخصية أحمد حسن الزيات قليلاً. فقد حَجَبَ القصةَ والمسرحيةَ عن مجلته بحجة أنهما من لهو الحديث وخوادع الحس وشهوات الأنفس، ولكنه هو نفسه ترجم بعضَ «لهو الحديث وخوادع الحس وشهوات الأنفس» عن غوته ولامرتين وغي دو موپاسان. فهو مثال واضح للتناقض السيكولوجي في عملية الترجمة. وهو يلبّي حاجةً برانيةً فُرضتْ فرضاً أو ما يشبه الفرضَ من الخارج، من دون أن يشعر في أعماق نفسه بما شعر به العباسيون. إنّ دخول المطبعة، وظهور الصحف والمجلات، أوجدا هذه الحاجة الخارجية التي وَجَدَتْ تلبيتها في الترجمة الأدبية.

أما الترجمة العلمية فكانت وئيدة جداً. صحيح أنه في زمن محمد علي تصدّرتْ هذه الترجمةُ بسبب حاجة الدولة إليها، وعلى الأخص في الصناعات الحربية والعلوم العسكرية، ولكنها سرعان ما تباطأتْ فيما بعد. حتى إنّ مجلة علمية مثل **المقتطف** اضطرتْ إلى مسايرة التيار، فعمدتْ إلى نشر قصة واحدة في كل عدد، مع أنها مخصّصة للعلوم وساهمتْ في تعريف القرّاء بنظرية داروِنْ والنظرية الموجية وعلم الوراثة والتشريح والطب ونظريات علم الاجتماع، وتحدثتْ عن التلفزة يومَ لم يكن هناك جهازُ تلفزيونٍ واحدٍ في العالم إلا في أميركا الشمالية. إنها، كما تلاحظون، تحمل الترجمات العلمية المتقدمة إلى القراء الذين كانوا يميلون (أو تميل الصحافة) إلى ما يرفضه الزيّات وصروف. ومع أنّ مجلة **الجنان** اهتمتْ بالجوانب الاجتماعية وترجمتِ الكثير في هذا الباب إلاّ أنها اتجهتْ إلى الأدب، وصارت مسرحاً احتشدتْ فيه القصصُ والمسرحياتُ الموضوعة والمترجمة. أما بقية الصحف والمجلات فكانت أدبيةً كـ **المورد الصافي، والحسناء، والبرق، والكنانة**... وغيرها من صحفٍ ومجلاتٍ لو أحصيتْ بدقة لرَبَتْ في أعدادها على ما يَصدر اليومَ من صحف في كل العالم العربيّ بضعفيْن أو ثلاثة أضعاف، بل قد ينجلي الإحصاء عن عشرة أضعاف. فبين عامَيْ ١٨٩٢ و١٩٣٠ كان هناك ثلاث وثلاثون مجلة أسستها ورأستْ تحريرَها امرأةٌ من أمثال **الفتاة** لهند نوفل، **والعروس** لماري عجمي، **والسعادة** لروجينا عواد، **والفردوس** للويزا حبالين... لكنّ الترجمة في المجلات النسائية كانت أيضاً تخضع في معظم الأحيان للتحريف تحت ضغط المحرّمات وتمشياً مع المجتمع الشرقي[2]. إنّ عنترة الفارس وعبلة المخلصة عنوانٌ عريضٌ لمنحى الترجمة. والمرأة كـ «شجرة لبلاب» محمد عبد الحليم عبد الله تعتمد على الفضيلة حسب العرف الشرقي؛ فإن اقترفتْ خطيئةً أو غلطةً دفعتْ ثمنها الانحرافَ أولاً والنبذَ الاجتماعيَّ ثانياً والموتَ ثالثاً وأخيراً.

ولم يحدث التعريبُ أو التشريقُ في الرواية وحدها، بل نجد أنّ المسرحيات المترجمة خضعتْ هي أيضاً لهذه العملية. وفوق ذلك جرى تملّقُ الجماهير بإدخال الطرب والغناء وآلات العزف والإيقاع إلى المسرح، وبذلك حُوِّلتْ أناشيدُ الجوقة اليونانية ذات المهامّ الخاصة في قلب العمل الدراميّ إلى حفلاتِ طربٍ تجعل الجماهيرَ يهزّون رؤوسهم وأحياناً يرقصون في قلب الصالة. وقد صارت الفِرَقُ المسرحيةُ تصاب بالانتكاس إذا ما توفّي مطربُها، وبحجة رغبة الجماهير في الطرب كانت كلُّ المسرحيات المترجمة تطوَّع وتروَّض حتى يمكن تلحينُها وغناؤها، أو كانت فيها فتراتٌ غنائية كافية لإرضاء الجمهور، وإلاّ احتاجت الفرقةُ إلى مطربٍ مّا بين الفصلين.

إنّ هذا يدل أننا في تجربتنا الثانية لم نَصْدر عن حاجة، وبالتالي فلا وجود لأيّ تبعية. بل إني أرى العكس تماماً: فبدلاً

---

١ ـ مرجع سابق، هامش ص ٥٣.

٢ ـ عمر الدسوقي: في **الأدب الحديث**، دار الفكر العربي، ١٩٥٩، الجزء الأول ص ٣٣٧ وما بعد. وهناك قائمة موثقة في كتاب **الاتجاهات الادبية** لأنيس الخوري المقدسي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠ تعطينا فكرة أوضح ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

من أن نشعر بالتبعية صرنا نُتْبِعُ هذه الفنونَ بنا ونُسخِّرها لمفاهيمنا الأخلاقية وقيمنا الشرقية. وهو ما جعل الترجمةَ الرصينةَ الدقيقةَ الأمينةَ قليلةً جداً بالنسبة إلى الركام الهائل من «الترجمة بتصرف»؛ وهذا التصرف لا حدود له: فقد يكون بالحوار أو السيناريو أو الشخصيات أو الخاتمة أو الأسماء أو إضافةِ مشاهدَ غنائيةٍ أو مشاهدَ جديدةٍ، وقد يكون كل ذلك في آن معاً!

كم نتمنى لو شعرتْ تجربتُنا الحديثةُ بشيء من التبعية والمسؤولية كما شعرتْ تجربتُنا العباسية التي أنتجتِ الشيءَ الكثيرَ. ولا شكّ أنّ الترجمة في هذه الأيام قد تخلصتْ من أكثر الإرهاقات الأولية التي رافقتْ تجربتَنا النهضوية. ونظنّ أنّ هذا سببٌ من الأسباب التي تجعلنا مثل أوروبا، التي ظلت تشعر بالتبعية حتى عرفتْ نفسها وأنشأتْ مناهجَها وحددتْ طريقَها.

كل هذا لا يعفينا من الإشارة إلى الدور الإيجابيّ الفعّال الذي لعبتْه الترجمةُ في أسلوبنا ولغتنا وأدبنا ونمط تفكيرنا. ذلك أنّ الترجمة نقلتْ إلينا الفاصلةَ والنقطةَ وعلامةَ الاستفهام والاعتراض والتعجب، ومتى تنتهي الجملة ومتى يبدأ المقطع الجديد. وأدخلت الترجمةُ مفرداتٍ جديدةً واستخدمتْ مفرداتٍ قديمةً بمعانٍ جديدة ساهمتْ في ترقيق الأسلوب وتسهيل الكتابة والتفكير.

**ب ـ الثقافة والإعلام:** إنّ الحديث عن التبعية الثقافية في هذه الأيام ما هو إلاّ من باب استجرار الثقافة إلى الميادين السياسية والاقتصادية. فمع وجود مراكز سياسية واقتصادية جبّارة عالمية لا بد أن تكون ثمة تبعيةٌ اقتصاديةٌ وسياسية، ولن تكون الثقافةُ بمنأى عن ذلك، رغم أنّ الثقافة بفروعها وتنوعها ـ وعلى الأخص الثقافة الأدبية والفنية ـ وسيلةٌ من وسائل التحرر وربما كانت أهمّ وسيلةٍ على الإطلاق. فسلطة الكنيسة الاستبدادية لم تَسْقط إلا بالأدب والفن، وسيطرةُ الإقطاعية لم تنجلِ إلا بالأدب والفن، وفضحُ الإمبريالية لم يتمّ إلا على يد الأدب والفن. فالثقافة أداة تحرير لا مثيل لها، ولكنّ الظرُوف القهرية هي التي تُحدِث هذا الخوفَ من ثقافة الشعوب المتقدمة. حتى إنّ بعض المتطرّفين في الستينيّات والسبعينيّات طالبوا بحجب الثقافة الغربية والتعامل مع ثقافة القارات الثلاث: آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية فقط باعتبار الأولى إمبرياليةً والثانية تحررية.

من الضروري تحديدُ الوجه الذي تتجلى فيه التبعيةُ في هذا العصر. إذ لا بدّ من التمييز بين الثقافة والإعلام. فوسائل الإعلام في هذه الأيام معاديةٌ للثقافة الأدبية كلّ العداء، بل إنها حجّمتها وألغتْ دورَها من الإعلام ومخاطبة الجماهير في معظم المجالات والميادين. وعلى هذا فإنّ من المستحيل تحميلَ الترجمة الأدبية وزرَ التبعية بالمعنى السياسيّ أو الاقتصاديّ.

**من المستحيل تحميل الترجمة الأدبية، وهي أشرف الأعمال، وزر التبعية السياسية والاقتصادية**

بل إنّ الأمر على النقيض من ذلك، إذ يجب أن تحتل الترجمةُ الأدبيةُ المكانةَ الأولى، لأنّ في التبعية إغناءً للشخصية لا إفقاراً لها كما في الاقتصاد والسياسة.

إنّ الذين يطرحون المعنى الضارّ للترجمة يحملون شيئاً على شيء بصورة خاطئة. إنهم هم أنفسهم يَخْضعون للتبعية الإعلامية والسياسية والاقتصادية، وأما الثقافة الأدبية فوسيلةٌ تحرر. إنّ الثقافة الأدبية الفرنسية أثناء الانتداب لم تساعد فرنسا، بل ساعدتنا نحن، مع أنّ الأدبَ الفرنسيَّ واحد: فهو لا يدعو إلى حرية الفكر في فرنسا، وإلى تبعية الفكر عندنا!

إنّ ضعفنا اليوم، أو عجزنا عن مواجهة التحديات الاقتصادية والسياسية والاعلامية، جعلانا نُلحق الثقافةَ بهذه التحديات، مع أنه إلحاق خاطئ منطقياً وواقعياً. والذين يخافون من غزو الترجمة الثقافية في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية، أجدر بهم أن يخافوا من القمع الداخلي في هذه القارات أو تدجين الثقافة. ذلك لأنّ الخطر الأكبر، بعد أن أقيمت الأنظمةُ الشموليةُ في هذه القارات فأمسكتْ بكل الضرورات المادية والمعنوية ـ من الرغيف وحتى وسائل الاعلام ـ، إنما يأتي من عقدِ بيعٍ بين فاوست (المثقف) ومفستوفيلس (السلطة). فالمثقف قد باع نفسه للسلطة، وخوفُه من الغزو الثقافيّ ليس سوى خدمةٍ للسلطة التي تخاف من تسرّب رياح الحرية الفكرية وحرية النشر والاعلام. إنّ خوفه ليس إلاّ من خوف الأنظمة الشمولية.

إنّ الترجمة الأدبية هي من أشرف الأعمال التي يقوم بها المثقفُ، شريطة ألاّ يكون قد باع نفسَه للطرف الثاني، لمفستوفيلس.

دمشق

## في العدد المقبل

حنا عبّود:

شكسبير من مطران إلى جبرا

ملف الترجمة II